الفصل الخامس

القرن السابع الهجرى.. قرن الطرق الصوفية

صورة لوجه مصر فى هذا القرن:

إذا استعرضنا تاريخ مصر خلال هذا القرن وجدنا أنه تاريخ صراع مرير على الحكم بين حكام لا تربطهم أى صلة بالمحكومين، اعتبروا مصر «وسية» ابن البلد فيها لا رأى له ولا صوت مسموع، عليه أن يدفع الضرائب وأن يفعل ما يؤمر به فقط.

ودارس التاريخ يشعر أن هذا الشعب، قد ظلم إلى حد كبير، وابتلى بأغرب الحكام، لكن الأغرب من هذا هو صبر هذا الشعب إزاء الظلم المفروض عليه من هؤلاء الحكام، فطوال حكم الأيوبيين والمماليك فى هذا القرن لم ترتفع أصوات تذكر فى وجه الحكام الظالمين، اللهم إلا ثورة الكورانى[1].

وخلال القرن السابع الهجرى، حكم مصر سبعة عشر حاكما. ستة من بنى أيوب، وأحد عشر مملوكا.

١ - الملك العادل سيف الدين أبو بكر الأيوبى من سنة ٥٩٧ هـ إلى ٦١٥ هـ.
٢ - الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل أبى بكر الأيوبى ٦١٥ هـ - ٦٣٥ هـ.
٣ - الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن الملك الكامل محمد ٦٣٥ هـ - ٦٣٧ هـ.
٤ - الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد ٦٣٧ هـ.
٥ - الملك توران شاه ٦٤٧ هـ - ٦٤٨ هـ.
٦ - شجرة الدر ٦٤٨ هـ - ٦٥٧ هـ.
٩ - الملك المظفَّر سيف الدين قطز المعزى ٦٥٨ هـ - ٦٧٦ هـ.
١٠ - الملك الظاهر ركن الدين بيبرس ٦٥٨ هـ - ٦٧٦ هـ.
١١ - الملك السعيد أبو المعالى محمد بن الملك الظاهر بيبرس ٦٧٦ هـ - ٦٧٨ هـ.
١٢ - الملك العادل سيف الدين سلامش بن الملك الظاهر بيبرس ٦٧٨ هـ.
١٣ - الملك المنصور قلاوون ٦٧٨ هـ - ٦٨٩ هـ.
١٤ - الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن الملك المنصور قلاوون ٦٨٩ هـ - ٦٩٣ هـ.
١٥ - الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون (المرة الأولى) ١٦٩٣ هـ - ٦٩٤ هـ.

---

(١) سنتكلم عن ثورة الكورانى عند الحديث عن الأحوال السياسية لمصر فى القرن السابع الهجرى.

١٦ - الملك العادل كتبغا ٦٩٤ هـ - ٦٩٦ هـ

١٧ - الملك المنصور حسام الدين لاجين بن عبدالله المنصورى ٦٩٦ هـ - ٦٩٨ هـ

١٨ - عودة الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى السلطة مرة ثانية ٦٩٨ هـ - ٧٠٨ هـ

ولقد كان الحكم لعبة فى أيدى المماليك فى هذا القرن.

فمثلا نجد أن مماليك الملك الصالح نجم الدين الأيوبى، زوج شجرة الدر، هم الذين اتفقوا وأقروا تعيينها ملكة، وهم الذين عرضوا عليها الزواج بعز الدين أيبك فوافقت وتزوجته.

وهذا هو الظاهر بيبرس أقوى المماليك، بدأ مؤامرة لاغتيال سيف الدين قطز بعد عودته منتصرا، من عين جالوت ليتولى بيبرس الحكم.

إننا نجد أنفسنا أمام سلسلة طويلة من القتل والتدمير من أجل شهوة الحكم والسيطرة.

والمؤرخ المنصف لابد أن يذكر من ناحية أخرى أن هؤلاء الحكام من بنى أيوب، والمماليك لعبوا دورًا كبيرًا فى انتصارات حربية عظيمة غيرت مجرى تاريخ العالم بأسره، لكن ينبغى ألا يغيب عن ذهننا أبدا، أن هؤلاء الحكام الأقوياء هم أنفسهم الذين كونوا دولة داخل الدولة، مستقلة، تنعم بكل شىء والشعب المصرى يقاسى الضرائب الباهظة من أجل الحروب المستمرة.

الأهمية التاريخية للقرن السابع الهجرى فى مصر من الناحية العسكرية:

كان القرن السابع الهجرى فى مصر من القرون المثيرة، التى لم تؤثر فى تاريخ مصر فحسب، بل أثرت فى تاريخ العالم بأسره، وذلك للأسباب الآتية:

أولاً - حدث فى هذا القرن هزيمة التتار فى موقعة عين جالوت ٦٥٨ هجرية ١٢٦٠ م فى عهد سيف الدين قطز، وبهذا وهبت مصر الحياة للدنيا كلها خصوصا أوربا التى أنقذتها مصر من إعصار مغولى عنيف.

ثانيًا - فى هذا القرن أنقذت مصر الإسلام من خطر الصليبيين ومنعت حدوث ردة أخرى ونكسة أندلسية ثانية.

ثالثًا - صارت مصر مركزا للخلافة العباسية فى هذا القرن، ففى زمن المستعصم آخر الخلفاء العباسيين هجم هولاكو على بغداد، وقتل الخليفة سنة ٦٥٦ هـ - ١٢٥٨ م، وبهذا زالت الخلافة العباسية من بغداد التى ظلت تحكم العالم الإسلامى قرابة خمسة قرون، وبدأ ظهور الدول الإسلامية المنفصلة عن بغداد التابعة لحكم الخلافة العباسية.

وحين سقطت بغداد فر أحد أبناء الخلفاء إلى مصر، فرحب به الظاهر بيبرس ونادى به خليفة للمسلمين ولقبه بالمستنصر، وهكذا صارت مصر مركزا للخلافة العباسية، وظلت هكذا ردحًا من الزمن، حتى استولى عليها السلطان سليم العثمانى.

رابعًا – حدث فى هذا القرن حدث من الأحداث الكبيرة فى تاريخ الإسلام والمسلمين، فقد تولت شجرة الدر أول وآخر امرأة تحكم دولة إسلامية وإن كان حكمها لم يتجاوز ثمانين يوما.

هذه الأحداث الهامة تؤكد لنا بجلاء ووضوح تامين ، أن هذا القرن له أهمية تاريخية خاصة، ولعل أحسن ما يصور هذه الأحوال، ماذكره ابن الأثير فى حوادث سنة ٦١٧ هـ[٢]، حيث يقول: لم يقع على المسلمين أذى وشدة من [بعد] النبى ﷺ إلى هذا الوقت مثل ما دفعوا إليه إلى الآن هذا العدو الكافر (التتر) وقد وطئوا بلاد ما وراء النهر، وملكوها وخربوها، والعدو الآخر (الفرنج) قد ظهر من بلادهم فى أقصى بلاد الروم بين الغرب والشمال، ووصلوا إلى مصر فملكوا مثل دمياط وأقاموا فيها. فإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

وواضح من هذا النص أن العروبة والإسلام كانا فى خطر شديدين لدرجة أن ابن الأثير يقول إنا لله وإنا إليه راجعون، فلم تكن مصر وحدها التى تعانى الخطر وإنما العالم العربى وخلافته فى بغداد بعد أن سقطت على يد المغول.

ثم ناهيك بالخلافات المستمرة بين حكام مصر، وأمرائها من أجل شهوة السلطة على مقاليد الحكم، «فمملوك يقتل سيده وأستاذه ويتولى مكانه فلا يلبث أن يثب عليه هو أيضا مماليكه والمقربون إليه فيقتلوه، أو يخلعوه، ويولوا غيره، وهلم جرا، والسبب فى ذلك يرجع فيما أعتقد إلى أن المماليك لم يقرون باستحقاق أى انسان غيرهم بالولاية من الوجهة الشرعية، وإنما كانوا يرون أن السلطنة أو ولاية أمر المسلمين هى حق لكل من توفرت له القوة، وواتته الفرصة، أو هيأت له الظروف الجلوس على أريكة الملك»[٣].

يقول الدكتور على صافى حسين «ومعنى هذا أن المماليك كانوا يتنازعون الولاية فيما بينهم، كأسلافهم الأيوبيين، غير أنه لم يكن ليؤدى إلى ضعف الدولة وكسر شوكتها، وتمكين الأعداء من التغلب عليها، كما كانت فى عهد بنى أيوب، لا بل إن دولة المماليك الأتراك كانت رغم تشاحن رؤسائها وتنازع أمرائها قوية. تهزم كثيرا ولا تنهزم إلا قليلا. وقد كان عصر المماليك استمرارًا للعصر الأيوبى من حيث الحرب والقتال، حيث ظلت الحروب الصليبية والتتارية طيلة هذا العصر على أشدها[٤].

وهذه الحروب اكتوى بنارها الشعب المصرى فقد كلفته الكثير من التضحيات، وزادت من أعبائه وسوء أحواله، واضطراب معيشته نتيجة للمشاحنات المستمرة بين الأمراء.

ومع ظلم الحكام للرعية نلاحظ صبر الشعب المصرى على حكامه فى هذا القرن، فلم تحدث ثورات، تستحق الذكر سوى حركة بسيطة قام بها شخص يدعى الكورانى «ففى عهد سيف الدين قطز ظهر (الكورانى)، وهو شاب طائش، خرج على الدين بسبب بدع نسبت إليه، ثم جدد إسلامه بعد أن ضرب

(٢) الكامل لابن الأثير: حوادث سنة ٦١٧.

(٣) كتاب ابن دقيق العيد للدكتور على صافى حسين ص ١٦.

(٤) كتاب ابن دقيق العيد للدكتور على صافى حسين ص ١٦.

ضربًا مبرحًا، وأطلق من الاعتقال، فأقام بالجبل الأحمر، فى أوائل حكم الظاهر بيبرس، وأظهر الزهد وسكن قبة الجبل، وتردد عليه الغلمان فحدثهم فى القيام على أهل الدولة، وأقطعهم الإقطاعات وكتب لهم رقاعا بها، كما لو كان صاحب الأمر الحقيقى فى البلاد، وبدأت الثورة تحت جنح الظلام، وكان العسكر قد علموا بأمرها، فأحاطوا بالثوار، وما انبلج الصبح حتى قبضوا عليهم جميعا وصلبوهم خارج باب زويلة، فسكنت الثائرة وكان ذلك فى نهاية سنة ٥٦٨ هـ (١٢٦٠ م)[٥]».

وكانت «تلك الثورة عظيمة الأثر فى سياسة بيبرس، فقد حقد على الشيعيين وعلى كل من يمت إليهم بصلة، وذلك لأن «الكورانى» اتخذ «آل على» شعاره فى ثورته، وأظهر أنه من الشيعة المتطرفين، وقد ظهرت بوادر سياسة بيبرس ضد الشيعة عامة، بعدما سقطت الدولة العباسية فى بغداد سنة ٦٥٦ هـ - ١٢٥٨ م، ورغب فى إحياء الخلافة العباسية بمصر لتدعيم مركزه دينيا وسياسيا، وقطع الطريق على العلويين الذين جاهدوا لنيل هذا الشرف منذ سقوط الدولة الفاطمية، ولكن دون جدوى»[٦].

من ذلك يتضح لنا سوء الأحوال السياسية فى مصر نتيجة للخلافات الشخصية المدمرة بين أفراد الطبقة الحاكمة فى البلاد.

أما الجانب المشرق الذى ينبغى أن يذكر للمماليك، فهو أنهم أصحاب الفضل الأكبر فى هزيمة التتار على ما ذكرنا، ثم كان لهم الفضل غير المذكور فى اعتناق المغول الإسلام، ثم كان فى عهدهم نهاية الحروب الصليبية فى الشرق.

ملامح الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى مصر فى القرن السابع الهجرى:

أورد المقريزى تقسيما للطبقات الاجتماعية فى عهد المماليك كالآتى:

١ - أهل الدولة.
٢ - أهل اليسار من التجار وأولى النعمة من ذوى الرفاهية.
٣ - الباعة وهم متوسطو الحال من التجار وأصحاب المعاش من السوقة.
٤ - أهل الفلح وهم أرباب الزراعة والحرث وسكان الريف.
٥ - الفقراء: وهم جل الفقهاء وطلاب العلم.
٦ - أرباب المصالح والأجر وأصحاب المهن.
٧ - ذوو الخصاصة والمسكنة الذين يتكففون الناس[٧].

من هذا التقسيم لطبقات المجتمع فى هذا العصر، يتضح لنا أن الشعب المصرى أغلبه، كان من الفقراء: من الفلاحين والأجراء والعمال بينما الحكام وأهل الدولة كانوا يعيشون فى نعيم مقيم.

---

(٥) تفاصيل ذلك فى كتاب السلوك للمقريزى جـ ١ ص ٤٤٠. وكتاب حياة السيد البدوى لإبراهيم نور الدين ص ٩٨.
(٦) حياة السيد البدوى لإبراهيم نور الدين ص ١٩٨.
(٧) عن كتاب تاريخ مصر الاجتماعى لأحمد زكى بدوى ص ٢٠٦.

ولقد أدى سوء الأحوال الاجتماعية فى البلاد إلى سوء أشد فى الأحوال الاقتصادية، فانتشر الفقر، وعمت البطالة «وبالجملة» فقد كثر فى هذه الفترة الفقر، واشتدت الخصاصة، وعظم الكرب، وجاع الناس فى أكثر الأحيان، حتى أكلوا الميتة، واستمرءوا لحم الآدميين»(٨).

أضف إلى ذلك «ما كان يرتكبه الأمراء وأصحاب الشأن فى الدولة من ظلم الناس واحتكار الأموال»(٩).

ثم «تزييف الأموال والتلاعب بها، والاستيلاء بالقوة والبطش على ما تنتجه أرض الفلاحين والزراع من الثمرات، وكثرة الضرائب على الأفراد والعقارات»(١٠).

وأشد قسوة من ذلك اجداب الأرض الزراعية فى فترات عديدة من هذا القرن، فمثلا فى عهد الملك العادل سيف الدين الأيوبى حدث بلاء عظيم، فقد هبط منسوب النيل سنة ٥٩٧ هـ - ١٢٠٠ م، وأدى ذلك إلى قحط شديد لم تعرف مثله البلاد حتى أن الناس كانت تأكل بعضها البعض.

يقول المؤرخ المصرى ابن اياس فى كتابه بدائع الزهور : «استمر النيل على ذلك ثلاث سنوات متوالية، ولم يزد غير عشرة أذرع ثم يهبط، فعدمت الأقوات فى الديار المصرية، فصار الناس من شدة الجوع إذا قوى أحدهم على صاحبه يذبحه بيده ويأكله من شدة الجوع، وهذا كله بعد أن فرغت الكلاب والقطط والوحوش والطيور، وقد تناهى سعر القمح فى السنة الثالثة إلى مائة دينار لكل أردب.. ولا يوجد»(١١).

وهكذا مات آلاف المصريين خلال هذه السنوات الثلاث جوعًا وألمًا ومرضًا ومات الكثير من الأطباء، خلال هذه الفترة، يدعون إلى زيارة المريض، وهناك فى داره يقتله المريض الجائع ليأكل لحم طبيبه، حتى النساء الغواسل لم يسلمن من الذبح لأكل لحومهن، وظل هذا الحال مدة ثلاث سنوات على ما قلنا، ثم هدأ وظهرت الغلال ثانية وانخفضت الأسعار انخفاضا كبيرا، نتيجة اعتدال منسوب المياه، وقلة السكان بسبب موت كثير منهم أثناء هذه المجاعة الفظيعة.

ولقد كان القرن السابع الهجرى فى مصر فى أغلب فتراته سيئا فى الأحوال الاقتصادية، نتج عنه تدهور وانحطاط فى الأخلاق، وإنتشرت البدع والانحرافات خلاله.

وحاول بعض الحكام الأقوياء أن يتصدوا لهذه الانحرافات فوجدنا مثلا الظاهر بيبرس قد «كتب بإزالة الخمور وإبطال الفساد، والخواطئ، من القاهرة ومصر، وجميع أعمالها فطهرت كلها من المنكر، ونهبت الحانات التى جرت عادة أهل الفساد على الإقامة بها، وسلبت جميع أموال المفسدات، وحبسن

(٨) بدائع الزهور لابن إياس المصرى جـ ١ ص ١٠٣.

(٩) اغاثة الأمة بكشف الغمة للمقريزى ص ٧٠، ٧١.

(١٠) السلوك للمقريزى جـ ١ ص ٤٣٧.

(١١) بدائع الزهور لابن اياس عدد ٨٧ طبعة الشعب ص ٦١.

حتى تزوجن ونفى كثير من المفسدين، وكتب إلى جميع البلاد بمثل ذلك»[١٢]، وبالطبع فإن الفقر يلعب دورًا هاما فى انتشار الانحرافات وسوء الأحوال الاجتماعية وانتشار الخرافات والخزعبلات التى تجد تربة مناسبة تنمو فيها، بين عقول الفقراء وأحلامهم.

ومن المحتمل أن صورة سوء الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى مصر، قد انعكست فى نفسية أصحاب الطريق فنجد مظهرا لذلك من خلال أدعيتهم، وأحزابهم المليئة بالعبارات التى تصور أحوالاً سيئة من ناحية، ومن ناحية أخرى تتضمن ما يثبت الطمأنينة فى نفوس أصابها الهلع والجزع، من أوضاع سياسية خارجية وداخلية يائسة ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ فالقلوب الواجفة المشتاقة إلى الطمأنينة تجد التعبير عن ذلك فى الذكر بأكثر مما تجده فى الفكر.

ولعل ذلك باعث نفسى على انتشار الذكر وطرقه، فالناس عادة تذكر الله كثيرًا فى أوقات المحن.

ونجد أن اسم الجلالة المفضل فى أوراد أصحاب الطرق الصوفية، والأكثر استعمالاً «يالطيف»، ونحن كثيرًا ما نقول «يالطيف» فى ساعات المحن والشدة والخوف والفزع.

وفى الحزب الصغير للدسوقى على المريد أن يردد لفظة «يالطيف» ١٢٩ مرة ويقول الإمام الشاذلى فى حزب البر: «اللهم إنا قد عجزنا عن دفع الضر عن أنفسنا من حيث تعلم بما تعلم، فكيف لا نعجز عن ذلك من حيث لا نعلم بما لا نعلم، ياشديد البطش، يا جبار، يا قهار، يا حكيم، نعوذ بك من شر ما خلقت، ونعوذ بك من ظلمة ما أبدعت، ونعوذ بك من كيد النفوس فيما قدر وأردت.. ياالله، يا الله، يا لطيف، يا رزاق». ونلمس تصويرًا صادقًا لنفسية الإنسان المصرى فى هذا الوقت من خلال الحزب الصغير للإمام البدوى. «اللهم اكفنيهم بما شئت، اللهم إنى أعوذ بك من شرورهم.. وأدرأ بك فى نحورهم، بك أحاول وبك أقاتل، اللهم واقية كواقية الوليد[١٣] بكهيعص[١٤] كفيت. بحمعسق[١٥] حميت فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم».

ملامح الحالة العلمية والثقافية والدينية فى مصر فى القرن السابع الهجرى:

نستطيع أن نقول إن القرن السابع الهجرى فى مصر كان قرن التناقضات.. فمع تدهور الأحوال الاجتماعية، والاقتصادية فى مصر فى هذا القرن، كما ذكرنا فقد كان هذا القرن من جانب آخر من أثرى وأزهى عصور مصر، وأخصبها فى مجال العلم، والثقافة والحياة الدينية، فكانت مصر فى عصر المماليك ملتقى العلماء ورجال الفكر والدين «وخصوصا بعد أن سقطت بغداد فى يد التتار، فتطلع العلماء فى جميع أقطار العالم الإسلامى إلى مهرب يلتجئون إليه فلم يجدوا غير مصر»[١٦].

---

(١٢) السلوك للمقريزى ١٠ جـ ١ ص ٥٧٨.

(١٣) أى احفظنى وارحمنى وابعد عنى السوء وقنى بالوقاية والحماية التى تحفظ بها المولود الصغير.

(١٤) أول سورة مريم.

(١٥) أول سورة الشورى.

(١٦) تاريخ مصر الاجتماعى للدكتور أحمد زكى ص ١٦٧.

والحق يقال: إن القاهرة فى عصر المماليك أصبحت مركز الإشعاع والنور والثقافة فى كل أنحاء العالم الإسلامى «ورغم كثرة المظالم وفداحة المكوس فإن مصر نهضت نهضة علمية مباركة، وكان دافعها الأول غيرة العلماء وحصرهم على إعادة مجد الإسلام الذى بعثرته أيدى التتار ثم معاضدة الملوك والأمراء لرجال العلم وأهله»(١٧).

ومن عوامل رقى الثقافة فى مصر فى هذا القرن، «غيره السلاطين والأمراء فقد كانوا يتعصبون للدين الإسلامى ويستميتون فى الذود عنه.، وبالتالى فقد كانوا يكرمون رجال الدين وأهل العلم.، هذا وقد كان الأيوبيون والمماليك جميعا يعظمون العلماء ورجال الدين»(١٨).

فمثلا كان الملك الكامل الأيوبى، «يحب أهل العلم ويؤثر مجالستهم وعنده شغف بسماع الحديث االنبوى»(١٩).

ويقول عنه صاحب وفيات الأعيان: وهو الذى أغرى يحيى بن عبد المعطى الزواوى صاحب الألفية فى النحو بالقدوم إلى مصر، فجاء إليها، وتصدر بجامع عمرو لإقراء الأدب، ورتب له الكامل جاريا كفاه»(٢٠).

ويجب ألا ننسى العمل الذى قامت به الدولة الأيوبية، وهو طمس المذهب الشيعى فى مصر، الذى حاولت دولة الفاطميين نشره بها، فعملت على نشر المذهب السنى، وأنشأت من أجل ذلك المدارس والمساجد الكثيرة، فنجد أن «جملة المدارس المعروفة بمصر القاهرة فى العصر الأيوبى أربع وعشرون مدرسة، منها ست مدارس خصصت للمذهب الشافعى، وثلاث للمذهب الحنفى، وثلاث للمذهب المالكى، وسبع لم تحدد مذاهب الدراسة بها ومدرسة واحدة للمذهبين الشافعى والمالكى معا، وأخرى للمذهبين الشافعى والحنفى وعلم القراءات، وثالثة للمذهب المالكى وعلم النحو، ورابعة للحديث وخامسة للمذاهب الأربعة»(٢١).

وإننا يجب ألا نغمط حق الدولة الأيوبية، فى الاهتمام بنشر المذهب السنى والاهتمام بالثقافة وبناء المدارس.

ويقال: «إنهم ساروا بمصر ودمشق سيرة نور الدين فى فتح المدارس، وذلك ليوجهوا عقول الناس إلى التفكير السنى بعد أن عاشت مصر، ودمشق زهاء قرنين فى إطار التفكير الشيعى، وكانت مدارس الأيوبيين كثيرة العدد بحيث تمكنت من تحقيق أهدافها فى وقت قصير؛ ويمتاز هذا العهد بأن الأمراء والأميرات والتجار وغيرهم من الأهلين حتى الخدم أسهموا فى إنشاء المدارس ورعاية العلم»(٢٢).

---

(١٧) المرجع السابق ص ١٨٠.

(١٨) كتاب ابن دقيق العيد للدكتور على صافى ص ٤.

(١٩) كتاب السلوك للمقريزى جـ ١ ص ٢٥٨.

(٢٠) وفيات الأعيان لابن خلكان ص ٢٣٥ ذكره الدكتور أحمد بدوى فى كتابه الحياة العقلية ص ٧.

(٢١) مساجد القاهرة ومدارسها: الجزء الثانى للدكتور أحمد فكرى ص ٥٤، ٥٥.

(٢٢) كتاب التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية للدكتور أحمد شلبى جـ ٥ ص ١٧٥.

ولا نستطيع أن ننكر أن الحياة الدينية فى مصر فى القرن السابع الهجرى نشطت ونمت نموًّا عظيمًا، «وجملة القول في الحياة الدينية فى مصر أثناء القرن السابع الهجرى، أنها كانت عريضة عميقة التأثير، فقد غلبت على عقول جميع الأوساط وأفئدة مختلف الجماعات، وعلى عواطفهم ومشاعرهم بوجه عام»(٢٣).

هذه هى الملامح السريعة للحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والدينية فى مصر فى القرن السابع الهجرى.. فما صلة هذا كله بالتصوف والطرق الصوفية فى مصر، وانتشارها فى القرن السابع الهجرى»؟

هذا ما ستكشف عنه هذه الدراسة فى نقاطها القادمة.. التى نبدؤها بالحديث عن:

التصوف فى مصر فى القرن السابع الهجرى:

قد لا أكون مغاليا إن قلت: إن القرن السابع الهجرى فى مصر كان قرن التصوف والطرق الصوفية، فإذا قمنا بإحصاء المتصوفة الذين عاشوا فى مصر خلال هذا القرن، وجدنا أنه يتميز عن أى قرن مر على مصر بظهور عدد كبير من المتصوفين، وسنلاحظ من خلال هذا الإحصاء أن كبار المتصوفين الذين عاشوا فى مصر خلال هذا القرن معظمهم من المغرب، فمن رجال التصوف بمصر فى هذا القرن؟(٢٤).

١ - الحسن الصوفى: ابن الصوفى الكبير عبد الرحيم القناوى توفى الحسن الصوفى بقنا سنة ٦٥٥ هـ، وقد قارب الثمانين، أما والده عبد الرحيم القناوى (ت ٥٩٢ هـ)، فأصله من سبته، وقدم من المغرب، وأقام بمكة سنين، ثم قدم قنا وأقام بها إلى حين وفاته.

٢ - ابن الصباغ القوصى: تلميذ الشيخ عبد الرحيم القناوى توفى بقنا سنة ٦١٣ هـ.

٣ - يوسف بن محمد على بن أحمد الهاشمى أبو الحجاج المغاورى قدم من المغرب، وأقام بقنا إلى أن توفى بها، وصحب الشيخ أبا الحسن بن الصباغ ومات سنة ٦١٩ هـ.

٤ - الشيخ أبو العباس البصيرى، أحمد بن محمد بن عبد الرحيم بن أبى بكر جزى الخزرجى الأنصارى الأندلسى توفى سنة ٦٣٢ هـ، ودفن بالقرافة.

٥ - يحيى بن موسى بن على القنائى يعرف بابن الحلاوى مات بقنا فى ذى القعدة عام ٦٢٥ هـ.

٦ - أبو الحجاج الأقصرى: الصوفى المعروف توفى سنة ٦٤٢ هـ بالأقصر.

٧ - نجم الدين أحمد بن أبى الحجاج الأقصرى: مات بالأقصر سنة نيف وثمانين وستمائة.

٨ - أبو السعود بن أبى العاشر بن شعبان بن الطيب الباذيونى. مولده بباذ، بقرب واسط العراق، مات بالقاهرة سنة ٦٤٤ هـ ودفن بسفح المقطم.

---

(٢٣) كتاب الأدب الصوفى فى مصر فى القرن السابع الهجرى للدكتور على صافى حسين ص ١٨.

(٢٤) اعتمدت فى ذكر هؤلاء الصوفية على كتاب حسن المحاضرة للسيوطى.

٩ - أبو بكر بن شافع القنائى: صحب الشيخ أبا الحسن بن الصباغ توفى سنة ٦٤٧ هـ.

١٠ - إسماعيل بن إبراهيم بن جعفر المنفلوطى ثم القنائى الشيخ علم الدين مات بقنا سنة ٦٥٢ هـ.

١١ - إبراهيم بن على بن عبد الغفار بن أبى القاسم بن محمد بن مصل ابن أبى الدنيا الأندلسى ثم القنائى... مات بقنا سنة ٦٥٦ هـ.

١٢ - الشيخ أبو الحسن الشاذلى مات سنة ٦٥٦ هـ[٢٥].

١٣ - القبارى: أبو القاسم بن منصور يحيى المالكى الإسكندرى المعروف بالقبارى مات بالإسكندرية سنة ٦٦٢ هـ.

١٤ - الجنيد بن مقلد السمهودى مات بمصر سنة ٦٧٢ هـ.

١٥ - الشاطبى: أبو عبد الله محمد بن سليمان المعافرى نزيل الإسكندرية مات سنة ٦٧٢ هـ.

١٦ - أبو العباس الملثم أحمد بن محمد، كان مقيما بالصعيد. مات سنة ٦٧٢ هـ.

١٧ - مسلم البرقى. صاحب الرباط بالقرافة مات سنة ٦٧٣ هـ.

١٨ - سيدى أحمد البدوى. توفى سنة ٦٦٧ هـ[٢٦].

١٩ - الشيخ أبو العباس المرسى تلميذ الشاذلى الكبير توفى سنة ٦٨٦ هـ.

٢٠ - الجعبرى أبو اسحاق إبراهيم بن معضاد توفى سنة ٦٨٧ هـ.

٢١ - سيدى إبراهيم الدسوقى توفى سنة ٦٦٩ هـ[٢٧].

٢٢ - الإمام أبو محمد بن حجرة المعرى توفى بمصر سنة ٦٩٥ هـ.

٢٣ - الشيخ كمال الدين بن عبد الظاهر بن محمد بن جعفر الهاشمى الجعفرى القوصى توفى سنة ٧٠١ هـ.

لقد ذكر السيوطى فى كتابه حسن المحاضرة حوالى ٩١ وليًا صوفيًا من الصوفية الذين ظهروا فى مصر منذ القرن الأول الهجرى، حتى نهاية القرن التاسع الهجرى، وبالطبع فإنه لم يذكر كل الصوفية الذين ظهروا فى مصر خلال هذه القرون، ومن هنا فإن إحصائيته نسبية إلى حد كبير.

لكن من خلال هذا الإحصاء التقريبى، يتضح لنا كيف كان الصوفية فى مصر فى القرن السابع الهجرى أضعاف الصوفية الذين ظهروا فى مصر فى أى قرن من القرون السابقة، أو اللاحقة حتى القرن العشرين.

ونجد أيضا أن هناك نسبة من هؤلاء الصوفية قدموا من المغرب والأندلس خصوصًا كبار هؤلاء الصوفية مثل (البدوى - الشاذلى - أبو العباس المرسى - ومن قبل عبد الرحيم القنائى).

---

(٢٥) سنقوم بدراسة الشاذلى فى المباحث القادمة إن شاء الله.

(٢٦، ٢٧) سنقوم بدراسة البدوى والدسوقى فى المباحث القادمة إن شاء الله.

ونلاحظ أن السيوطى قد أغفل عددًا من الصوفية الذين عاشوا فى مصر فى هذا القرن مثل:

١ - أبو العباس البونى (ت ٦٢٢ هـ).

٢ - عبد الله بن صعود بن مطر الروى ت ٦٣٥ هـ، من تلامذة أبى النجيب السهروردى.

٣ - أبو الحسن على بن عبد الله الششترى، أصله من ششتر من أعمال وادى أسن بالأندلس، وكان من الأسرة المالكة بها، وهاجر إلى مصر واستقر بدمياط ت ٦٦٨ هـ.

٤ - كمال الدين أحمد بن على القسطلانى المالكى ت ٦٣٦ هـ، من أجل تلاميذ أبو عبد الله القرشى الصوفى.

٥ - أبو الغنائم نجم الدين محمد المطوعى، من تلامذة داود الأعزب ت ٦٨٤.

٦ - أبو عبد الله السائح المغربى ت ٦٧٤.

٧ - قطب الدين القسطلانى ت ٦٨٦ هـ.

من خلال هذه الاحصائية النسبية، فإنه يتضح لنا عدم مبالغتى حين قلت: إن القرن السابع الهجرى فى مصر كان قرن التصوف، كما كان معظم متصوفته من المغاربة.

لكن كيف نفسر السبب فى قدوم متصوفة المغرب إلى مصر، والهجرة إليها، ونشر تصوفهم وطرقهم فيها.

يقول بعض الباحثين: «يبدو أن التصوف المغربى كان أقوى تأثيرا فى العالم الإسلامى، بدليل أنه فى القرن الخامس الهجرى قامت دولة المرابطين فى المغرب العربى، وهى الدولة التى أسسها عبد الله بن ياسين (ت ١٥٠٩ م)، على أسس من التصوف الروحى والجهاد الدينى، ولها صفحات مشرقة فى الدفاع عن كيان المسلمين بالأندلس وشمال أفريقية، ذلك أن عبد الله بن ياسين أقام دولته على أسس من التقشف، والزهد والعبادة، فدعا أصحابه إلى الإقامة فى الربط لعبادة الله بعيدا عن حياة الفساد، ومن ثم سميت الدولة بدولة المرابطين، وحدث فى القرن السادس الهجرى (١٢ م)، أن زالت دولة المرابطين فى المغرب العربى وحلت محلها دولة الموحدين»(٢٨).

ومن الطبيعى أن يفكر متصوفة المغرب وعلماؤه فى القرنين السادس، والسابع الهجريين فى الهجرة إلى القاهرة التى وجدوها تربة خصبة لبذر أفكارهم الصوفية، كما هاجر إليها أيضا على ما ذكرنا سابقا العديد من علماء بغداد والشام، ولكن لسبب آخر وهو سقوط بغداد فى أيدى المغول، والحروب التى استمرت طويلا بين الصليبيين وبلاد الشام، وكانت مصر هى التى تحملت العبء الأكبر فى الدفاع عن الإسلام فى هذا القرن، حين خلصت العالم الإسلامى من المغول، وانتصرت على الصليبيين وردتهم على أعقابهم خاسرين.

---

(٢٨) كتاب السيد البدوى للدكتور سعيد عاشور ص ٥٧.

قرن الطرق الصوفية:

حين قلت: إن القرن السابع الميلادى فى مصر، كان قرن التصوف، أعنى بالذات التصوف العملى، الذى تمثله الطرق الصوفية التى انتشرت فى هذا القرن، ونمت نموًّا كبيرا. ولقد راودتنى فكرة استنبطتها من خلال عرضى لصورة الحياة الاجتماعية والسياسية، والاقتصادية لمصر فى القرن السابع الهجرى.

ومؤدى هذه الفكرة أنه قد يكون مما ساعد على انتشار الطرق الصوفية فى مصر انتشارًا عجيبًا، واندفاع عشرات الألوف من المصريين للانضمام تحت لواء هذه الطرق، هو تشجيع الحكام أنفسهم لحركات الطرق الصوفية، ليشغلوا الشعب المصرى عن التفكير فى أحوال البلاد.. فبدلا من أن ينشغل الإنسان المصرى بالتفكير فى ظروفه الاجتماعية والاقتصادية السيئة - بدلا من - أن يفكر فى فقره وبلائه.. بدلا من أن يفكر فى طريقة للخلاص من وضعه السيئ بالثورة على الحاكم، فإن الحاكم نفسه يعمل على شغل فكره من خلال تشجيعه إلى الانضمام إلى إحدى الطرق الصوفية، فيجد عالمه وخلاصه فى رحاب الطريق وهكذا انشغل المصريون كلهم فى هذه الحقبة من الزمن بالطرق الصوفية وتركهم الحكام .، وانشغلوا هم فى لهوهم وحروبهم.. يفرضون على الشعب المزيد من الضرائب من أجل حروبهم الكثيرة ومتعهم الزائدة عن الحد.

ولقد مر بنا كيف عاش هذا الشعب ظروفًا ضاريةً خلال هذا القرن من الزمان، مما جعله يبحث عن طريق للتخلص من الانفصام النفسى، والتمزق الداخلى الذى يعيشه، فوجد فريق من هذا الشعب الذى تسكن فى أعماقه منذ القدم وتتغلغل فى داخله روح الدين أن الطريق هو طريق الله، ولابد لمن يريد الوصول إلى الله، من مدارج يرقاها فى سيره، فى رحاب طريقة من الطرق التى تهدى إلى الله.

وإذا كان القرن السابع الهجرى فى مصر، يمثل فى أغلب فتراته اضمحلالاً اجتماعيًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا، إلا أنه كان عصر انتشار الطرق الصوفية، ففيه ظهرت أكبر الطرق الصوفية: «البدوية والشاذلية، والدسوقية». وازدهرت فيه وقويت طريقتا: الرفاعية، والقادرية.

مما يجعلنى أقول بحذر شديد، حتى أوضح هذه الفكرة[٢٩] إنه يحتمل مع وجود تدهور فى الحياة الاقتصادية، والاجتماعية والسياسية لدى شعب من الشعوب أن يبدأ انسحاب الناس، وتلمس أثر الهزيمة واضحًا فى فكرهم، بعضهم يهرب من الحياة منعزلاً فى صومعة، يعبد ربه بعد أن أخفق فى الحياة التى أجبرته ظروفها السياسية والاجتماعية والاقتصادية على اعتزالها، والانسحاب من نشاطاتها.

ويرى بعض الباحثين «هيلر» أن ذيوع التصوف يصحب تدهور الحضارات المتطورة فى آخر مراحلها، ويرى أنه فى مثل هذه الأوقات - كما كان فى الهند القديمة، وفى العالم الرومانى والإغريقى، وفى القرون الوسطى فى ألمانيا، وفى القرنين السادس والسابع عشر فى فرنسا، فى مثل هذه الأوقات تخبو الرغبة الصحيحة فى الحياة لدى بعض الموهوبين ذوى العقول النبيلة والمشاعر المرهفة، وينقطع الرجاء

---

(٢٩) سأوضح هذه الفكرة والفكرة المقابلة لها لدى الدكتور محمد كمال جعفر.

فى حياة مستقبلة ممتعة، وتهزم القيم الملموسة والأهداف والأعباء التى تفرضها الحياة، إن كره هؤلاء للعالم وللحضارة يأخذ بمجامع قلوبهم، وإن رغبتهم المتأججة فى الخير المطلق، تدفعهم بلا رحمة إلى التمرد، لتخليص أنفسهم، وإطلاق حريتهم من هذا العالم والحضارة والمجتمع.

ويشرح الدكتور جعفر هذا الرأى قبل أن يعارضه فيقول: «والذى يفهم من هذا الرأى ببساطة، هو أن نضج التصوف، وتطوره يصاحب دائما تدهور الحضارة «أى أنه لا يمكن أن تكون هناك حضارة متقدمة وزاهية يصاحبها تصوف ناضج مكتمل»[٣٠].

ويقول: «قد يضيف مثل هذا الباحث إلى ذلك تعليلاً عقليًّا يحسبه مرضيا، وهو أن الرجل التقى الورع بما أنه غير راض عن العالم، وعظمته وبهجته، يشعر أنه غريب على هذه الأرض، وأنه مشدود إلى بدنه الذى يعتبره سجنًا وقبرًا، ومن ثم تهفو هذه النفس السجينة إلى التخلص والحرية، لتحلق فى الآفاق السماوية الإلهية التى منها أتت، ويرى هذا التقى أن الوسيلة إلى ذلك ليست إلا تخليص هذه النفس من شباك هذا العالم الخارجى، والانطلاق أو الانسحاب داخليا إلى باطن أعماق النفس»[٣١].

ويحاول الباحث أن يبين الخطأ الذى تردت فيه هذه الفكرة بإلقاء الضوء على الحضارة الإسلامية، والتصوف فى القرنين الثالث والرابع الهجريين – التاسع والعاشر الميلاديين – وفى بادئ الأمر يتساءل «ماذا يقصد الباحث بلفظ الحضارة؟ وماذا يقصد بانحطاط هذه الحضارة، إن وصفه للساخطين على هذه الحضارة بأنهم ذوو عقول نبيلة، وبأنهم موهوبون أتقياء، قد يفهم منه السبب فى هذا السخط، وهو انحطاط المستوى الأخلاقى أو الروحى فى الأمة التى يعيشون فيها، وتلك وظيفة سامية يجب على الموهوبين القيام بها، أما الجانب السلبى الذى نلحظه فى بعض هؤلاء الموهوبين، فإن بعضه يرجع إلى غلبة ظاهرة الانحطاط الذى يستعصى مقاومته، ومن ثم قد يتمسك هؤلاء أنفسهم ومن يستطيعون التأثير فيه،ويحوى التاريخ قصصا لأفراد، تركوا ملكهم وانسلخوا من ثرواتهم ليعيشوا عيشة الشظف والتقشف، وقد أدخلهم التاريخ وأضفى عليهم من الخلود مالم يكونوا يحلمون به، لو أنهم احتفظوا بثرواتهم وعروشهم»[٣٢].

وأنا أترك صاحب هذا الرأى يتابع تفنيده لهذه الفكرة كما ذكرنا سابقا بإلقائه الضوء على الحضارة الإسلامية فى أوج عظمتها وبعد ذلك نناقش هذه المسألة.

يقول: «على أننا نلاحظ – فيما يمس حضارتنا الإسلامية التى بلغت أوجها فى القرنين – الثالث والرابع الهجريين – التاسع والعاشر الميلاديين، أن نضج التصوف وتطوره وبلوغه مرحلة تدنو إلى الكمال يمكن ملاحظته فى خلال هذه الفترة أيضا، إن الحضارة الإسلامية سارت فى تطورها جنبًا إلى جنب مع تطور التصوف ونضجه»[٣٣].

---

(٣٠) التصوف طريقا ومذهبا للدكتور جعفر ص ٢٩.

(٣١) المرجع السابق ص ٢٩.

(٣٢) المرجع السابق ص ٣٠.

(٣٣) نفس المرجع ص ٣١.

وإنى أقدر رأى الدكتور جعفر فى تفنيده فكرة «هيلر» ومن سار نحوه من الذين قالوا: إن انتشار التصوف يصحبه تدهور الحضارات المتطورة فى آخر مراحلها. وذلك بذكر الدكتور جعفر حجته، بأن نضج التصوف وقوته الحقيقية كان فى القرنين الثالث والرابع الهجريين، وكان مواكبًا لنضج الحضارة الإسلامية وعظمتها فى هذين القرنين، غير أننى أقول: إن رأى الدكتور جعفر قد ينطبق على التصوف النظرى الفردى، أما رأى «هيلر» فيكاد ينطبق على التصوف العملى الذى تمثله الطرق الصوفية.

ولقد برزت الطرق الصوفية فى مصر فى القرن السابع الهجرى، وهذا القرن على ما بينا كان عصر انحطاط سياسى واجتماعى واقتصادى، فى مصر[٣٤]، وعلى قدر ما كان عصر تدهور وانحطاط إلا أنه كان فى الوقت نفسه يمثل قمة ازدهار الطرق الصوفية، وانضمام عشرات الألوف من المصريين إليها، وهذا يعنى أن التصوف - خصوصًا التصوفَ العملى الذى تمثله الطرق الصوفية قد يزدهر خلال عصور الضعف السياسى ازدهارا بارزا.

مثال ذلك ما أوضحناه: ازدهاره فى القرن السابع الهجرى فى مصر وهو عصر ضعف، وانحلال سياسى واجتماعى ليس فى مصر فحسب، بل فى سائر العالم الإسلامى، ومن الملاحظ أيضا أنه فى هذا القرن ظهر تصوف نظرى فى بلاد الأندلس، فنجد خلاله بعض أبرز فلاسفة التصوف النظرى مثل: «عبد الحق بن سبعين»[٣٥] و «محيى الدين بن عربى»[٣٦]، وفى مصر ظهر الصوفى الكبير شاعر الحب الإلهى عمر بن الفارض[٣٧].

وإن كان لنا أن ندلى بدلونا فى هذه النقطة، فقد يكون من الواضح أننى مع القائلين بازدهار التصوف خلال عصور الضعف.

أما وقد ذكرنا أنه ازدهر وبلغ أوجه فى ظل أوج الحضارة الإسلامية فى القرنين الثالث والرابع الهجريين، كما ازدهرت الطرق الصوفية فى عصور الضعف.

إذن فإننا نرى أن التصوف الفردى النظرى قد واكب الحضارة الإسلامية فى أوجها، أما التصوف العملى، «تصوف أصحاب الطرق الصوفية»، فقد جاء مواكبًا لضعف الحضارة الإسلامية، فالحق «أن الرغبة فى العزلة والعودة إلى الله لا تقوى إلا فى ظلال الضعف.. فقليل من الناس يتذكر الله فى قوته وصحته وشبابه وثرائه، وكثيرًا ما يذكر الناس ربهم فى ضعفهم ومرضهم وشيخوختهم وفقرهم»[٣٨]،

---

(٣٤) من الملاحظ أن العالم الإسلامى منذ القرن الخامس الهجرى قد أصيب بضعف شديد نتيجة ضعف الحكام وانقسام الدولة الإسلامية إلى عدة دويلات ضعيفة وظهور قوى جديدة كالمغول التى هددت أمن هذه الدويلات وأضعفتها.

(٣٥) عبد الحق بن سبعين: صوفى أندلسى ولد بمرسيا عام ٦١٣ هـ وهو صاحب فلسفة الوحدة المطلقة.. توفى بمكة عام ٦٦٧ هـ.

(٣٦) محيى الدين بن عربى: فيلسوف وحدة الوجود: ولد بمرسية سنة ٥٦٠ هـ ومات بدمشق سنة ٦٣٨ هـ.

(٣٧) عمر بن الفارض: سلطان العاشقين: ولد بالقاهرة عام ٥٧٦ هـ وتوفى عام ٦٣٢ هـ.

(٣٨) كتاب السيد البدوى: للدكتور سعيد عاشور ص ٢٨.

وقد تكون المرارة والظروف الضارية التى عاشها الإنسان المصرى فى هذا القرن، جعلته يشعر أن لا ملجأ إلا الله، وقد يكون ذلك من خلال الإقبال عليه من خلال طريقة من الطرق الصوفية.

ونحن لا نشك «فى أن المصريين أحسوا فى القرن السابع الهجرى بنفس شعور المرارة والأسى، الذى أحس به عامة المسلمين عندئذ فى مشارق الأرض ومغاربها، فها هم التتار يضربون الوطن الإسلامى فى أقصى مغربه، وبين هذا وذاك يحرص الصليبيون على أن يصيبوا من المسلمين مقتلاً بطعنهم فى مكان هو بمثابة القلب من وطنهم الكبير، وهذا ما جعلهم يفكرون فى النجاة بالرجوع إلى الله، وفى وسط التصوف متنفسا للتعبير عن آلامهم، فازداد عدد المقبلين على التصوف زيادة كبيرة»[٣٩].

وعلى ذلك: فنحن نرى أن التصوف العملى «تصوف الطرق الصوفية»، قد ازدهر، ونما فى عصور ضعف الأمة الإسلامية خصوصا منذ القرن السابع الهجرى وما تلاه من عصور تميزت بالضعف وتدهور الأمة الإسلامية سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًا.

وأهم أصحاب الطرق الصوفية فى مصر فى القرن السابع الهجرى.

١ - سيدى أحمد البدوى صاحب الطريقة البدوية.

٢ - سيدى أبو الحسن الشاذلى صاحب الطريقة الشاذلية.

٣ - سيدى إبراهيم الدسوقى صاحب الطريقة الدسوقية.

---

(٣٩) المرجع السابق: ص ٣٥، ٣٦.